Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد ذهب جل الكتب فى الفتن الكائنة من التتار وغيرهم بحيث أن الكتب الموجودة الآن فى اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد».

وأعتقد أن هذه القصة لا تخلو من إغراق فى صدرها ومن مبالغة فى عجزها وأيًا ما كان فهى تُرينا شبه صورة لما نكبت به البلاد فى الكتب من فعل التتار.

ويعجبنى فى هذا المقام كلام لابن مكرم جعله بين يدى كتابه «لسان العرب» وابن مكرّم من صميم رجال هذا العهد؛ حيث ولد «سنة ٦٣٠ هجرية ومات سنة ٧١١ هجرية».

قال: «وإنى لم أقصد سوى حفظ هذه اللغة العربية وضبط فضلها إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز، والسنة النبوية؛ ولأن العالم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النية اللسان، ويخالف فيه اللسان النية، وذلك لما رأيته قد غلب فى هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن فى الكلام يعد لحنًا مردودا، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودًا، وتنافس الناس فى تصانيف الترجمات فى اللغة الأعجمية، وتفاصحوا فى غير العربية، فجمعت هذا الكتاب فى زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يَسْخَرون».

ومن أنعم النظر فى هذا المؤلف ورأى صنيع المؤلف من استشهاد كثير بآيات القرآن الكريم وبما صح من حديث الرسول ﷺ، ومن إرداف ذلك يذكر بعض ما أثر عن الذين يحتج بقولهم، وتعقيبه على ذلك بشرحه وتحليله، وما اشتمل عليه من مسائل فى النحو والتصريف، حكَمَ بأنه روضة من رياض الأدب، وإلى أنه قد ضبط به لغة العرب ووجد بينه وبين «مغنى اللبيب لابن هشام» نسبًا وصهرا.

كيف لا وجمال الدين بن هشام كجمال الدين بن مكرم [1] كلاهما مصرى لغوى أنجبهما عصر واحد، وأنبتهما قطر واحد، وانحدرا من سلالة الأنصار.

***

(١) بغية الوعاة ص ١٠٦ .